(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)) .

[البقرة : ٢٥٧] .

(**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**) أي : حافظ المؤمنين ومتولي أمورهم وناصرهم ، والمراد بالولاية هنا الولاية الخاصة .

لأن الولاية تنقسم إلى قسمين :

ولاية عامة : مقتضاها أن يرزقهم ويعطيهم وأيضاً القهر والسلطان والملك ، وهذه للمؤمنين والكفار .

ودليلها هذه الآية (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) .

وقوله تعالى (ورُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

ولاية خاصة ، وهذه خاصة بالمؤمنين مقتضاها النصر والتأييد والتسديد والتوفيق والإخراج من الظلمات إلى النور .

كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) .

وقال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) .

وقال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

فالله ولي المؤمنين : لأنه يواليهم بالنصر والثواب الجزيل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري .

والمؤمنون أولياء الله كقوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لأنهم يوالونه بالطاعة .

- **قال ابن القيم** : فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، وليست بكثرة صوم ولا صلاة .

(**يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**) أي : يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الهداية والإيمان .

- **قال الرازي** : أجمع المفسرون على أن المراد هاهنا من الظلمات والنور : الكفر والإيمان .
- **قال الشنقيطي** : هذه ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين ، وهي إخراجه لهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى (الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور) .

وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه ، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم وذلك في قوله تعالى (ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) .

وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولي نبيه ﷺ وأنه أيضاً يتولى الصالحين وهو قوله تعالى (إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين) .

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**) أي : وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : وإذا تأملت هذه الجملة ، والتي قبلها تجد فرقاً بين التعبيرين في الترتيب ، ففي الجملة الأولى قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) لأمور ثلاثة :

أحدها : أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولاً استبشر به .

ثانياً : التبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل .

ثالثاً : إظهار المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولاً ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

وأما الجملة الثانية (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) ولو كانت على سياق الأولى لقال : والطاغوت أولياء الذين كفروا ، **ومن**

الحكمة في ذلك :

أولاً : ألا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله .

ثانياً : أن الطاغوت أهون وأحقر من أن يُبدأ به ويقدّم .

ثالثاً : إن البداءة بقوله (والذين كفروا) أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره .

- **قال الشنقيطي** : قال بعض العلماء : الطاغوت الشيطان ويدل لهذا :

قوله تعالى (إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) أي يخوفكم من أوليائه .

وقوله تعالى (الذين آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والذين كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطاغوت فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً) .

وقوله (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) الآية .

وقوله (إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ) الآية.

والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان) الآية .

وقال (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً) .

وقال عن خليله إبراهيم (يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان) الآية .

وقال (وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**) أي : يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلالة .

- **قال الخازن** : إنما سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه ، ولأن الظلمة تحجب الأبصار عن إدراك الحقائق فكذلك الكفر يحجب القلوب عن إدراك حقائق الإيمان وسمي الإسلام نوراً لوضوح طريقه وبيان أدلته.

- **فإن قيل** : فكيف يخرجونهم من النور ، وهم لم يدخلوا فيه ؟

قيل : إن الآية مخصوصة بأهل الكتاب الذين كانوا مقرين بنبوة موسى وكذلك المقرين بنبوة عيسى ، وكانوا متبعين لملتهم ، فهؤلاء كانوا على نور ، فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به فدخلوا في ظلمات الكفر بعد أن خرجوا من نور الإيمان .

وقيل : إن المراد بإخراجهم من الظلمات إلى النور الحيلولة بينهم وبين الإيمان حتى يضلونهم عن طريق الإيمان ، فيكون التضليل إخراج من النور إلى الظلمات .

وقيل : إنه لما ظهرت معجزات رسول الله ﷺ كان المخالف له خارجاً من نور قد علمه ، والموافق له خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم .

- **قال الشنقيطي** : المراد بالظلمات الضلالة ، وبالنور الهدى ، وهذه الآية يفهم منها أن طرق الضلال متعددة لجمعه الظلمات وأن طريق الحق واحدة لإفراده النور ، وهذا المعنى المشار إليه هنا بينه تعالى في مواضع أخر كقوله (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيله) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه : ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وقال تعالى (وَجَعَلَ الظلمات والنور) .

- **وقال ابن القيم** : والمقصود أن طريق الحق واحد إذ مرده إلى الله الملك الحق وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى

شيء موجود ولا غاية لها يوصل إليها بل هي بمنزلة بنيات الطريق وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود فهي وإن تنوعت فأصلها طريق واحد ، ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل والنور بمنزلة طريق الحق فقد أفرد النور وجمعت الظلمات وعلى هذا جاء قوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) .

فوحد ولي الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد ، وجمع الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم وجمع الظلمات وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد النور وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه .

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه ، والغريم لغريمه ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

- والنار هي الدار التي أعدها الله للكافرين .

قوله تعالى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) وهذا الأسلوب يطلق على الذين يخلدون فيها ، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحق العذاب بالنار – فإنه لا يسمى من أصحاب النار ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وقد ذكر الله تأبيده في ثلاث آيات من القرآن الكريم .

في سورة النساء : قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب : قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً) .

وفي سورة الجن : قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

الفوائد :

١- فضيلة الإيمان .

٢-إثبات الولاية لله تعالى .

٣-أن من ثمرات الإيمان هداية الله للمؤمن .

٤- الحذر من دعاة الضلال الذين يخرجون الناس من النور إلى الظلمات .

٥- إثبات النار .

٦- أن الكافرين مخلدون في النار .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)).

[البقرة : ٢٥٨] .

(**أَلَمْ تَرَ**) أي : بقلبك يا محمد .

(**إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ**) هذا الذي حاج إبراهيم في ربه وهو ملك بابل: نمروذ بن كنعان .

قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين. والكافران: نمروذ بن كنعان وبختنصر. فالله أعلم (تفسير ابن كثير) .

- **قال القرطبي** : هو النُّمْروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح مِلك زمانه وصاحبُ النار والبَعُوضَة! هذا قول ابن عباس

ومجاهد وقَتادة والرّبيع والسُّدِّي وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم.

وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه باباً من البَعُوض فستروا عين الشمس وأكلوا عسكره ولم يتركوا إلا العظام ، ودخلت واحدة منها في دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة ؛ فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عَتيدَة لذلك ، فبقي في البلاء أربعين يوماً.

- **وقال أبو حيان** : مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى : لما أخبر أنه ولي الذين آمنوا ، وأخبر : أن الكفار أولياؤهم الطاغوت، ذكر هذه القصة التي جرت بين إبراهيم والذي حاجه، وأنه ناظر ذلك الكافر فغلبه وقطعه ، إذ كان الله وليه، وانقطع ذلك الكافر وبهت إذ كان وليه هو الطاغوت (ألا إن حزب الله هم الغالبون) (ألا إن حزب الله هم المفلحون) فصارت هذه القصة مثلاً للمؤمن والكافر اللذين تقدّم ذكرهما .

(**فِي رَبِّهِ**) أي : في وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه .

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (في ربه) يحتمل أن يعود الضمير على إبراهيم ، وأن يعود على النمروذ ، والظاهر الأول.

(**أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**) أي : لأن آتاه الله تعالى ذلك ، (فتكون [أن] هنا تعليلية ، وعلى هذا المعنى : أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك .

كما قال تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ) ، فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنياً عن الناس.

وقال تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) .

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) .

وفرعون لما أغناه الله وملّكه مصر قال (يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ) .

وقارون لما أنعم الله عليه قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) .

وقال ﷺ (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي .

والأبرص والأقرع لما آتاهما الله مالاً جحدا نعم الله عليهما .

وعن عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فَقَدِمَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ وَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ ». قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ : فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ

قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) متفق عليه .

وقال ﷺ (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) .

قال ابن رجب : هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا ، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم ، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها .

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم .

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا .

إذا أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمرداً .

(**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**) وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أي : الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج –وهو النمروذ :

(**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**) قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد : وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فذلك معنى الإحياء والإماتة .

- **قال ابن كثير** : والظاهر –والله أعلم–أنه ما أراد هذا ، لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يَدّعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) .

(**قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**) أي : إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب.

- وقد قال كثير من العلماء أن هذا من إبراهيم انتقال من دليل إلى دليل أو ضح وأكبر لا يستطيع المكابرة معه .

وقال بعض العلماء: إن هذا ليس من باب الانتقال من دليل إلى دليل آخر أوضح ، وإنما هو من باب طرد الدليل ، فكأنه قال له : ما دام أنك أنت تحيي وتميت ، وأنت تملك هذه القدرة الهائلة ، فأنت الذي تتصرف في هذا الكون فأت بالشمس من المشرق .

واختار هذا الحافظ ابن القيم حيث قال : ... فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت ، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة ، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد فقد أحيا هذا وأمات هذا ، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة ، فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه ، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار ، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة .

واختاره ابن كثير حيث قال : وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية ، وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويُبَيّن بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة.

(**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**) أي : فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة .

(**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) أي : لا يهديهم في الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلالة .

● **قال ابن عاشور** : وإنّما انتفى هدي الله للقوم الظالمين ، لأنّ الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمّل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع ؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره.

الفوائد :

١- أن المجادلة لإبطال الباطل ، وإحقاق الحق من مقام الرسل .

٢- فضل إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قام بالدعوة إلى التوحيد .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) .

وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) .

٣- الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة والمحاجة ، لأنها وسيلة لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

٤- أن النعمة والترف قد تكون سبباً للطغيان .

٥- أن الإحياء والإماتة بيد الله .

٦- إثبات أن من جحد الله فهو كافر .

٧- التحذير من الظلم بجميع أنواعه .

٨- فضل العدل .

(**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)**) .

[البقرة : ٢٥٩] .

(**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ**) هذه هي القصة الثانية .

● اختلف في المار :

فقيل : عزير ، وهذا هو المشهور .

وقيل : هو رجل من بني إسرائيل .

وأما القرية : فالمشهور أنها بيت المقدس ، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها .

(**وَهِيَ خَاوِيَةٌ**) أي : ليس فيها أحد ، من قولهم : خوت الدار تخوي خواءً وخُوياً .

(**عَلَى عُرُوشِهَا**) أي : ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، ولهذا

قال :

(**قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها .

- **قال ابن الجوزي** (قال أنى يحيي هذه الله) أي : كيف يحييها . فإن قلنا : إن هذا الرجل نبي ، فهو كلام من يؤثر أن يرى كيفية الإعادة ، أو يستهولها ، فيعظم قدرة الله ، وإن قلنا : إنه كان رجلاً كافراً ، فهو كلام شاك ، والأول أصح .
- **قال في التسهيل** : (أنى يُحْيِي هذه الله) ظاهر هذا اللفظ إحياء هذه القرية بالعمارة بعد الخراب ، ولكن المعنى إحياء أهلها بعد موتهم ، لأنّ هذا الذي يمكن فيه الشك والإنكار ، ولذلك أراه الله الحياة بعد موته ، والقرية كانت بيت المقدس لما أخربها بختنصر ، وقيل : قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف .

(**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**) أي : أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم بعثه .

- **قال ابن كثير** : قالوا: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجعت بنو إسرائيل إليها .

(**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ**) أي : قال له ربه بواسطة الملك كم لبثت في هذه الحالة .

- **قال القرطبي** : اختُلف في القائل له (كم لبثت) **فقيل** : الله جل وعز ، **وقيل** : سمع هاتفاً من السماء يقول له ذلك ، **وقيل** : خاطبه جبريل ، وقيل : نبيّ ، **وقيل** : رجل مؤمن ممن شاهده من قومه عند موته وعمر إلى حين إحيائه فقال له : كم لبثت.

ويقال : كان هذا السؤال بواسطة الملك على جهة التقرير.

ثم قال رحمه الله : قلت : والأظهر أن القائل هو الله تعالى ؛ لقوله (وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً) .

(**قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**) قالوا : وذلك أنه أماته أول النهار ، ثم بعثه الله في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) .

- **قال في التسهيل** : (قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) استقل مدّة موته، قيل: أماته الله غدوة يوم ثم بعثه قبل الغروب من يوم آخر بعد مائة عام؛ فظنّ أنه يوم واحد، ثم رأى بقية من الشمس فخاف أن يكذب في قوله: يوماً فقال: أو بعض يوم .
- **قال القرطبي** : (قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) إنما قال هذا على ما عنده وفي ظنه ، وعلى هذا لا يكون كاذباً فيما أخبر به ؛ ومثله قول أصحاب الكهف (قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) وإنما لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين على ما يأتي ولم يكونوا كاذبين لأنهم أخبروا عما عندهم ، كأنهم قالوا : الذي عندنا وفي ظنوننا أننا لبثنا يوماً أو بعض يوم.

ونظيره قول النبيّ ﷺ في قصة ذي اليَدَين : " لم أقصر ولم أَنْس" " ومن الناس من يقول : إنه كذبٌ على معنى وجود حقيقة الكذب فيه ولكنه لا مؤاخذة به ، وإلا فالكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه وذلك لا يختلف بالعلم والجهل .

(**قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**) أي : بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة .

(**فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**) أي : فإن شككت فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنب وتين وعصير فوجدها على حالها لم تفسد .

(**وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ**) أي : كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر .

(**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ**) أي : دليلاً على المعاد .

(**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا**) أي : نرفعها فتركب بعضها على بعض .

- **قال ابن الجوزي**: قوله تعالى (كيف ننشزها) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (ننشرها) بضم النون الأولى، وكسر الشين وراء مضمومة. ومعناه: نحييها، يقال: أنشر الله الميت، فنشرهم. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ننشزها، بضم النون مع

الزاي، وهو من النشز الذي هو الارتفاع. والمعنى: نرفع بعضها إلى بعض للأحياء .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وانظر إِلَى العظام) فأكثر المفسرين على أن المراد بالعظام عظام حماره ، فإن اللام فيه بدل الكناية ، وقال آخرون أرادوا به عظام هذا الرجل نفسه .

(**ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً**) أي : ثم نكسوها لحماً وأنت تنظر .

(**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ**) بأن له إحياء الموتى .

(**قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (قَالَ أَعْلَمُ) بهمزة قطع وضم الميم أي : قال الرجل ذلك اعترافاً ، وقرئ بألف وصل ، والجزم على الأمر أي قال له الملك ذلك .

الفوائد :

١- بلاغة القرآن حيث ينوع الأدلة والبراهين على الأمور العظيمة .

٢-أن العبرة بالمعاني والمقاصد دون الأشخاص .

٣- أن الإنسان إذا استبعد وقوع الشيء ولكنه لم يشك في قدرة الله لا يكفر بهذا .

٤- إثبات البعث .

٥- أنه ينبغي التفكر فيما خلقه الله وأحدثه في الكون .

٦- بيان عموم قدرة الله تعالى .

٧- ثبوت كرامات الله .

(**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)**) .

[البقرة : ٢٦٠] .

(**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**) أي : واذكر حين طلب ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى .

- سأل الخليل عليه السلام عن الكيفية مع إيمانه الجازم بقدرة الله تعالى ، فالسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان .

(**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ**) هذا الاستفهام للتقرير ، وليس للإنكار ولا للنفي ، فهو كقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) أي : قد شرحنا لك صدرك .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (أَوَلَمْ تُؤْمِن) ففيه وجهان أحدهما : أنه استفهام بمعنى التقرير ، قال الشاعر : ألستم خير من ركب المطايا.. وأندى العالمين بطون راح

والثاني : المقصود من هذا السؤال أن يجيب بما أجاب به ليعلم السامعون أنه عليه السلام كان مؤمناً بذلك عارفاً به وأن المقصود من هذا السؤال شيء آخر .

(**قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**) أي : ليزداد طمأنينة .

- فإبراهيم عليه السلام أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين .

فالدرجات ثلاث :

علم اليقين : كما قال تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) ، وهو العلم الثابت الراسخ الذي لا يداخله شك .

عين اليقين : قال تعالى (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) ، وهذا لا يُتوصل إليه إلا بالمشاهدة .

حق اليقين : قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) ، وهذا لا يتحقق إلا بملابسة شيء .

وقد قال ﷺ (ليس الخبر كالمعاينة) ولهذا لما اخبر الله موسى : أنه قد فتن قومه ، وأن السامري أضلهم ، لم يحصل له من الغضب والكيفية والقاء الألواح ، ما حصل له عند مشاهدة ذلك .

مثال يوضح ذلك : قلت إن معي تفاحة – وأنا عندك ثقة – فهذا علم اليقين .

فإن أخرجتها من جيبي ، فهذا عين اليقين .

فإن أعطيتك لتأكلها فهذا حق اليقين .

قال القرطبي : اختلف الناس في هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شكّ أم لا ؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكّاً في إحياء الله الموتى قطُّ وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ؛ ولهذا قال عليه السلام (ليس الخبر كالمعانية) .

قال الأخفش : لم يُرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين.

وقال الحسن وقَتادة وسعيد ابن جُبير والربيع : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه.

- فإن قال قائل : ما الجواب عن قوله ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) ؟

الجواب : **قيل** : معنى الحديث أن الشك يستحيل في حق إبراهيم ، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك ، وإنما خص إبراهيم لكون الآية قد يسبق منها إلى بعض الأذهان الفاسدة احتمال الشك ، وإنما رجح إبراهيم على نفسه تواضعاً وأدباً ، أو قبل أن يعلم أنه خير ولد آدم .

بهذا التأويل قال الخطابي، والطحاوي، وابن حزم، والقاضي عياض، وابن عطية، وابن الجوزي، والنووي، وابن حجر، وابن عثيمين.

وقيل : إن الحديث كان رداً على قوم أثبتوا الشك لإبراهيم .

وقيل : أن المراد بقوله ﷺ : (نحن) أمته الذين يجوز عليهم الشك . والأول أصح .

(**قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ**) أي : فخذ أربعة طيور .

- **قال ابن كثير** : اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُتَّهم لنص عليه القرآن، فروي عن ابن عباس أنه قال : هي الغرنوق ، والطاوس ، والديك ، والحمامة . وعنه أيضًا : أنه أخذ وزًّا، ورألاً – وهو فرخ النعام –وديكاً، وطاووسًا. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكا، وطاووسًا، وغرابًا.

(**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**) بضم الصاد أي : أمِلْهُنّ إليك، وقيل : ضُمّهُنّ إليك .

وفي قراءة (فصِرهن) تكون بمعنى قَطّعْهُنّ .

أي : ضُمّهُنّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة .

(**ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً**) أي : فرّق أجزاءهن على رؤوس الجبال .

(**ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً**) أي : بسرعة .

- **قال ابن كثير** : فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ونتف ريشهن، ومزقهن وخلط بعضهن في ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، قيل: أربعة أجبل . وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه

تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته .

وقال أبو حيان : أمره بدعائهنّ وهنّ أموات ، ليكون أعظم له في الآية ، ولتكون حياتها متسببة عن دعائه ، ولذلك رتب على دعائه إياهنّ إتيانهنّ إليه .

- **وقال السعدي** : فعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة ، وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً ، وجعلهن على رؤوس الجبال ، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيراً ، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله.

(**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة العزة وهي ثلاثة أنواع: عزة القدْر: بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم، وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء، لا يُغلب، وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

(**حَكِيمٌ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة ، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة .

فهو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً .

قال بعض العلماء : الحكمة تكون في صورة الشيء : أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة ، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة .

وتكون في غايته : أي : أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك جميع المخلوقات ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) .

الفوائد :

١-أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه .

٢-أن عين اليقين أقوى من خبر اليقين .

٣-تمام قدرة الله بإحياء الموتى .

٤-إثبات زيادة الإيمان .

قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) .

وقال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) .

وقال تعالى (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً) .

وقال تعالى (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) .

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن ...) متفق عليه .

وجه الدلالة :أنه إذا ثبت النقص ثبتت الزيادة .

وقال ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه أبو داود .

وعن ابن مسعود أنه قال (اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً) .رواه ابن بطة بإسناد صحيح .

وعن أبي الدرداء أنه كان يقول (الإيمان يزداد وينقص) رواه ابن ماجه .

وكان معاذ يقول لرجل : اجلس بما نؤمن ساعة .

وقال عمار : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : إنصاف من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالم .

فأهل الإيمان يتفاضلون كما قال سبحانه (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) .

(مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)) .

[البقرة : ٢٦١] .

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ) .

- قوله تعالى (في سبيل الله) يعني في دينه، قيل: أراد النفقة في الجهاد خاصة، وقيل: جميع أبواب البر، ويدخل فيه الواجب والنفل من الإنفاق في الهجرة مع رسول الله ﷺ، ومن الإنفاق في الجهاد على نفسه وعلى الغير، ومن صرف المال إلى الصدقات، ومن إنفاقها في المصالح، لأن كل ذلك معدود في السبيل الذي هو دين الله وطريقته لأن كل ذلك إنفاق في سبيل الله .
- قوله (في سبيل الله) أضيف إلى الله لسببين :

الأول : أنه هو الذي وضعه لعباده وشرعه لهم .

والثاني : أنه موصل إليه .

(كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) كحبة بذرها إنسان ، فأنبتت سبع سنابل (فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) فتكون الجميع سبعمائة ، فالحسنة إذاً في الإنفاق في سبيل الله تكون بسبعمائة .

- **قال أبو حيان** : وشبه الإنفاق بالزرع ، لأن الزرع لا ينقطع .
- **وقال ابن كثير** : وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف .
- **في هذه الآية فضل الإنفاق في وجوه الخير والطاعة ، وللإنفاق فضائل عظيمة :**

أولاً : أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثانياً : مضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

ثالثاً : أن درجة البر تنال بالإنفاق .

قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

رابعاً : أنها من صفات المتقين .

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على أن الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم .

خامساً : الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر .

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

سادساً : أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل .

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

سابعاً : أن الله يخلف الصدقة .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

ثامناً : أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان .

قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم ، فالصدقة برهان على صحة الإيمان .

تاسعاً : ينال دعاء الملائكة .

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان : يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

عاشراً : فضل من سبق بالإنفاق والجهاد .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) .

الحادي عشر : أنها إرغام للشيطان وحسن ظن بالله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الثاني عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير .

قال ﷺ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) .

(**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال ﷺ قال (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ...) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال ﷺ (الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني

- **وقال السعدي** : وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق

الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

قال القرطبي : اختلف العلماء في معنى قوله (والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ) فقالت طائفة : هي مبيّنة مؤكدة لما تقدّم من ذكر السبعمائة ، وليس ثمَّ تضعيف فوق السبعمائة.

وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف.

قلت : وهذا القول أصحُّ لحديث ابن عمر المذكور أوّل الآية.

- **وقال ابن عاشور** : ومعنى قوله (والله يضاعف لمن يشاء) أنّ المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلاّ الله تعالى ؛ لأنّها تترتّب على أحوال المتصدّق وأحوال المتصدّق عليه وأوقات ذلك وأماكنه.

وللإخلاص وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما يحفّ بالصدقة والإنفاق ، تأثير في تضعيف الأجر ، والله واسع عليم .

(**وَاللَّهُ وَاسِعٌ**) الفضل ، واسع العطاء ، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته .

- **قال ابن القيم** (واسع) فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ، فإن المضاعِف واسع العطاء ، واسع الغنى ، واسع الفضل .

(**عليم**) بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها ، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

الفوائد :

١- ضرب الأمثال ، وهو تشبيه المعقول بالمحسوس ، لأنه أقرب إلى الفهم .

٢-فضيلة الإنفاق في سبيل الله .

٣- الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل .

٤- أن ثواب الله وفضله أكثر من عمل العامل .

٥- حرص الشريعة على نفع الآخرين .

٦- فضل الكرم والجود .

٧- ذم البخل .

٨- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله : الواسع ، العليم .

(الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)) .

[البقرة : ٢٦٢ – ٢٦٣] .

(**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً**) يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل (وَلا أَذىً) أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان.

- في هذه الآية أن من محبطات الصدقة والإنفاق المن والأذى .

- **قال القرطبي** :المنُّ : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ؛ مثل أن يقول : قد أحسنت إليك ونَعْشْتُك وشبهه.

وقال بعضهم : المنّ : التحدّث بما أَعطى حتى يبلغ ذلك المعطَى فيؤذيه.

- والمنّ من الكبائر ، ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره ، وأنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ؛ وروى النسائيّ عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاقّ لوالديه والمرأة المترجّلة تتشبّه بالرجال والديُّوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة العاقّ لوالديه والمدمِن الخمر والمنّان بما أعطى) وفي بعض طرق مسلم (المنان هو الذي لا يعطي شيئاً إلا مِنّة) والأذى : السب والتشكّي ، وهو أعمّ من المنّ ؛ لأن المنّ جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وُقُوعِه.
- **قال ابن الجوزي** : ولقد حدثنا عن حسان بن أبي سنان أنه كان يشتري أهل بيت الرجل وعياله ، ثم يعتقهم جميعاً ، ولا يتعرف إليهم ولا يخبرهم من هو.
- **قال القرطبي** : لما تقدّم في الآية التي قبلُ ذِكرُ الإنفاق في سبيل الله على العموم بَيَّن في هذه الآية أن ذلك الحكم والثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه مَنّا ولا أذًى ؛ لأن المنّ والأذى مبطلان لثواب الصدّقة كما أخبر تعالى في الآية بعد هذا ، وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابَه بإنفاقه على المنَفق عليه ، ولا يرجو منه شيئاً ولا ينظر من أحواله في حالٍ سوى أن يراعي استحقاقه ؛ قال الله تعالى (لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً) ، ومتى أنفق ليريد من المنفَق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه فهذا لم يُرد وجهَ الله .
- **قال أبو السعود** : وإنما قُدم المن لكثرة وقوعِه، وتوسيطُ كلمة (لا) للدَلالة على شمول النفي لإتباع كل واحدٍ منهما و(ثُمَّ) لإظهار علوِّ رتبة المعطوف.

(**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**) أي : ثوابهم عند ربهم .

(**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة .

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) على ما فاتهم من أمور الدنيا .

(**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ**) المراد به الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف .

(**وَمَغْفِرَةٌ**) لمن أساء إليك ، بقول أو فعل .

- **قال ابن الجوزي** : (قول معروف) أي: قول جميل للفقير ، مثل أن يقول له: يوسع الله عليك (ومغفرة) أي: يستر على المسلم خلته وفاقته .

وقيل: أراد بالمغفرة التجاوز عن السائل إن استطال على المسؤول وقت رده .

(**خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً**) للمعطِي ، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً .

(**وَاللَّهُ غَنِيٌّ**) عن صدقاتهم ، وعن جميع عباده، فالله غني عن كل ما سواه، غني في نفسه لكثرة ما عنده، غني عن خلقه، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض، وخزائن السموات والأرض كلها بيده، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) فخزائنه عز وجل ملأ، لا يغيضها كثرة الإنفاق، وليس بحاجة إلى خلقه، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، وكل شيء فقير إليه.

قال ابن القيم : هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد .

وقال السعدي : هو الغني بذاته ، الذي له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، والاعتبارات لكماله ، وكمال صفاته ، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً ، لأن غناه من لوازم ذاته ، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع

خلقه غنى عاماً .

قال : ومن كمال غناه : أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الذل .

وقال الخطابي : الغني : هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه ، فليست به حاجة إليهم ، وهم إليه فقراء محتاجون .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : إفراد الله تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الغني الغنى المطلق المطلق ، والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه ، فالأمر كله له والملك كله له ، وجميع الخلق مربوبون مملوكون ، فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى ؟

ثانياً : الافتقار التام إلى الله عز وجل ، لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين ، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد ، وكل أحد محتاج إليه .

ثالثاً : أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس ، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس ، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم ، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفنى خزائنه .

رابعاً : أن الله غني عن عباده ، ومع ذلك فهو محسن إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .

- فغنى الله يتضمن شيئين : الأول : الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه ، والثاني : الغنى عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه .

(**حَلِيمٌ**) مع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي .

الفوائد :

١- الحث على الإنفاق في سبيل الله .

٢- خطر من أتبع نفقته بالمنّ والأذى .

٣- أن المن والأذى يبطل الصدقة .

٤- على المسلم أن يعرف مبطلات الأعمال .

٥- فضيلة القول المعروف .

٦- الحث على المغفرة لمن أساء إليك .

٧- أن الأعمال الصالحة تتفاضل .

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغني والحليم .